مقدمة الجزء الأول

منذ فجر التاريخ يتصارع أصحاب العقائد لاعتقاد كل طرف منهم أن عقيدته هي الأصح. وهي التي يجب أن تسود وتستعلي. ومع بروز الديانات الكبرى في الشرق بشكل عام احتد الصراع بين أصحاب العقائد حتى أخذ شكلاً دموياً في كثير من الأحيان. وامتدت آثاره حتى يومنا هذا ونحن على أبواب قرن جديد.

فاليهودية أنكرت المسيحية كما تحللت المسيحية من التعاليم المسلكية اليهودية وإن ظلت تعتبر التوراة مصدراً أساسياً، من مصادرها. والديانات الوثنية التي انتشرت في الهند وآسيا الجنوبية والصين واليابان راحت تنقض بعضها بعضاً وترفض الحديثة منها القديمة. فالهندوسية تحارب البوذية وتحاول أن تمتصها وكذلك العكس.

وهذه الصراعات التي لم تتوقف جرت بسبب التعصب الديني أو المذهبي ورفض الانفتاح الديني بين الشعوب.

وهذه هي الحال حتى جاء الإسلام فاختلفت نظرة الناس إلى الآخرين من أصحاب العقائد الأخرى فالقرآن الكريم تحدث عن التوراة والإنجيل وعن اليهودية والنصرانية وحتى أصحاب العقائد الوثنية وحث على المجادلة والحوار العقلي والحكمة والمنطق.

وقد صرح القرآن الكريم كثيراً بأن بين العقائد أو الرسالات السماوية نظرة مشتركة لوجود إله واحد لا تتم العبودية إلا له. وإيماناً برسل وأنبياء مهمتهم التبليغ وإيماناً بالحساب والعقاب وقد حث أصحاب هذه الرسالات على الرجوع إلى كلمة سواء بينها وهي ألا يشرك بعبادة الله الواحد شيء.

ومجرد الاعتراف القرآني بتلك الرسالات والعقائد يدفع المسلم وغير

المسلم للاطلاع على الشرائع والمعتقدات الدينية اطلاعاً منفتحاً. يبعد عن التعصب والتحجر بسبب هوى شخصي أو جماعي وقد تصدى المسلمون الأوائل من مهتمين بالعقائد والديانات ومن علماء لدراستها دراسة حقيقية موسعة تستند إلى فهم واعٍ واتساع أفق.

وبدافع التوضيح قدّم هؤلاء العلماء في كتبهم ما غاب عن عقول الناس ونفوسهم أو اشتبه عليها فرأينا على سبيل المثال كتاب الملل والنحل للشهرستاني وكتاب الفصل بين الملل والأهواء والنحل للفيلسوف الإسلامي ابن حزم الظاهري الأندلسي. وكتاب الفَرْق بين الفِرَق لعبد القاهر البغدادي.

إضافة لذلك فقد حفلت كتب القدماء من علماء الإسلام بمواضيع قيمة ترتبط بتعريف الدين والفرق بينه وبين الفلسفة. فكان للإمام الغزالي رأيه وكذلك ابن خلدون. والإمام الشوكاني حيث تعرض لمقاصد القرآن والكتب المنزلة السابقة عليه.

إضافة لذلك فقد تصدى المعتزلة أمثال العلاف والنظام وواصل بن عطاء وغيرهم لأصحاب الزندقة من المجوس وحاوروا زعماء العقائد الأخرى. ويعود الفضل في ذلك إلى عصر المأمون في الدولة العباسية الذي بلغ علم الكلام ذروته فيه.

وقد هضم علماء الأمة الإسلامية وفلاسفتها فلسفات الأمم الأخرى المرتبطة بالعقائد كالفلسفة الهندية واليونانية وغيرهما. واستطاعوا مناقشتها ونقضها والإتيان بإضافات مهمة عليها. وبمعرفة خصائص كل عقيدة نشأت ملامح علم يمكن أن نطلق عليه علم مقارنة الأديان بحيث أصبح من مهمة الباحث أو المطلع على العقائد وخصائصها أن يقارن بينها في مسائل كثيرة كالألوهية ومنشأ الخلق. والموت والبعث والحساب والعقاب إلى آخر ما هنالك من قضايا العقائد ومحتوياتها.

وقد يعتقد بعضنا أن هذا العلم يدرس التأثير بين العقائد تماماً كما هو الحال في الأدب المقارن حيث يدرس بروز التأثيرات المتبادلة في كل أدب ومدى ما أثر فيه الأدب الآخر مثلما نرى من تأثير المعراج لابن عربي في الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي

دانتي. ومثلما نرى من تأثير شعري عربي في الشعراء الجوالين (التروبادور).

بينما يرى بعضنا الآخر أن مقارنة الأديان ليس من شأنها دراسة التأثر والتأثير إنما غايتها دراسة القضايا البشرية الكبرى المرتبطة بالإيمان والتشريعات والعبادات. والتصورات حول الخالق والمخلوق والخير والشر وما إلى ذلك.

وإذا وصلنا العصر الحديث وجدنا آراء بعض علمائنا في قضايا الدين فوجدنا رأي المفكر الإسلامي الفيلسوف محمد إقبال الذي يرى ويسلم بوجود أديان وصور فنية تحقق للإنسان رغبة الفرار المستخذي من حقائق الحياة ولكنه يفكر أن يشمل ذلك سائر الأديان. فالعقائد والآراء الدينية لها من غير شك أمارة ميتافيزيقية. وكذلك وجدنا المجدد جمال الأفغاني يدلو بدلوه في جانب آخر أن الدين أمر واجب للمجتمع.

لكن علم مقارنة الأديان أصبح من العلوم المعترف بها في الغرب، له خصائصه وميزاته وتداخلاته مع علم الأساطير (الميثولوجيا) ومع علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم.

وقد قدمت في الغرب دراسات في بداية هذا القرن تقارن العهد القديم ـ التوراة ـ بالقرآن حتى ذهب بعضهم إلى القول إن القرآن نسخة مهذبة من التوراة.

وقد لجأ الباحثون العرب الحديثون والمعاصرون إلى مقارنة الأديان. ولكن هذا العلم على الرغم من قدم ملامحه وحتى علمائه فإن قلة من الباحثين المعاصرين العرب تصدوا له بمنهج علمي.

ومن أشهر من كتب في ذلك المفكر العربي عباس محمود العقاد في كتابين له. (الله) و(إبليس)، وقد درس كلٌ منهما كافة الاتجاهات العقيدية لدى الشعوب القديمة ولدى أصحاب الرسالات الكبرى. وممن كتب في مقارنة الأديان الدكتور أحمد الشلبي حيث قسم بحثه في أربعة كتب. درس في الأول اليهودية وفي الثاني المسيحية وفي الثالث ديانات الهند الكبرى وفي الرابع الإسلام.

ويرى الدكتور الشلبي أن الطريقة التي سار عليها العقاد فيها من العثرات الكثير. وعليها ملاحظات مما جعل الباحثين يعزفون عنها.

ويرى الشلبي أن مباحث الأديان غير مشابهة. فتاريخ اليهودية له أثر كبير في عقيدتهم. لكن التاريخ الإسلامي ليس ذا أثر في العقيدة الإسلامية. وبوذا لم يتكلم عن الإله. ولكن محمداً ﷺ تكلّم عنه وأفاض. وفي أديان الهند موضوع التناسخ وليست كذلك الأديان السماوية وقد لجأ الدكتور الشلبي إلى طريقة أخرى حيث خصص كتاباً لكل عقيدة تدرس فيه مباحثهُ العقيدة والتشريعات المختلفة مشفوعة بالمقارنة كلما وجد لها مجال.

ويرى الدكتور الشلبي أن هذا الطريق في البحث هو الذي يسير عليه أغلب الكتّاب. وقد قدم الدكتور موريس بوكاي كتاباً في المقارنة بين التوراة والإنجيل والقرآن. لكن الجانب الذي درسه جانب التوافق وعدم التوافق بين القرآن والتوراة والإنجيل والعلم الحديث فقارن بين معطيات علم الفلك والطب والجيولوجيا والقرآن الكريم، والتوراة والإنجيل الحاليين.

ومن الباحثين الذين تناولوا الأديان بالمقارنة. الدكتور محمد كمال جعفر حيث قدم ثلاثة كتب تكمل بعضها. وقد درس في الأول الإنسان والأديان واستعرض كثيراً من المباحث التي تعتبر تمهيداً للمقارنة بين العقائد والأديان.

وقد ترجم الدكتور إمام عبد الفتاح إمام كتاب المعتقدات الدينية لدى الشعوب دون أن يكون الهدف مقارنة المعتقدات إنما طغى على المنهج الجمع الموسوعي والكتاب من تأليف وإشراف جفري بارندر. ويساهم في إضافة بعض جوانب الفكر الديني القديم كتاب آخر لـ جون كولر الذي ترجمه كامل يوسف حسين وراجعه الدكتور إمام إمام.

ومن الكتب أيضاً كتاب الأديان المعاصرة وهو لراشد عبد الله الفرحان لم يتوسع في المقارنة وغلب عليه الاستعراض والإيجاز.

وبعض الكتب ساهمت أيضاً في إضاءة بعض الجوانب الدينية لدى الشعوب ككتاب الموت في الديانات الشرقية لحسين العودات.

ومن الكتب التي درست المعتقدات الدينية مرتبطة بالأساطير كتاب مغامرة العقل الأولى لفراس السواح ويغلب عليه جمع النصوص الأسطورية الدينية دون أي محاولة لمقارنة. وعلى الرغم من قلة الدراسات في مقارنة الأديان فإن الجهود تبدو حثيثة في هذا المجال مما يبشر بفهم أوسع ونتاج متنوع متميز في هذا العلم الحديث.

أما بالنسبة للأسلوب فإننا نلاحظ ونحن نقدم هذه الدراسة المقارنة بين التوراة والقرآن أنه يمكن اللجوء إلى طريق ثالث في المقارنة. وهذا الطريق يدرس القضايا الكبرى التي يركز عليها القرآن وتركز عليها التوراة.

وهذه القضايا هي:

1 ـ الله والخلق الإلهي وأصل الأشياء.

2 ـ التاريخ البشري من خلال التصريح والتلميح والرمز وبعض القرائن المساعدة والدالة.

3 ـ الأنبياء والشخصيات الدينية وغير الدينية كما وردت في القرآن الكريم والتوراة.

ومن الطبيعي أن دراسة هذه القضايا الكبرى تسقط من حسابها بعض الأمور الجانبية. وذلك بسبب الغاية التي نرجوها من هذه الدراسة. وهي إيضاح ما يتوافق مع العقل والمنطق والوجدان في كلا الكتابين والرسالتين وتبيان استفادة العقيدة التوراتية من أساطير الشعوب الأخرى والتحقيق فيما كتب في التوراة ودوّن وإيضاح ذلك على ضوء ما صرح به القرآن الكريم حولها.

لقد أوضح الدكتور محمد كمال جعفر في كتابه الإنسان والأديان أن هناك طرقاً عدة لمقارنة الأديان. فقسمها إلى:

1 ـ الطريقة النفسية وبين فيها خصائصها وأعلامها أمثال وليم جيمس وعلق على بعض الخصائص وأوضح بعض الملاحظات.

2 ـ والطريقة التاريخية الاجتماعية، وقدم فيها نماذج من الديانات المصرية واليونانية وأوضح بعض النقاط التي يجب التوقف عندها في المقارنة واستكمالاً للدراسة فقد لجأنا إلى بعض الكتب القديمة والحديثة التي تناولت أنبياء إسرائيل ككتاب قصص الأنبياء لابن كثير. وكتاب مجلس العرائس للثعلبي النيسابوري. وكتاب قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار. وهذا الأخير ذاع صيته بين القارئين في العالم العربي والإسلامي لما فيه من لغة سهلة وتحقيق جيد. ومع ذلك فإن بعض الملاحظات تؤخذ عليه وسنتعرض لها في حينها ولا سيما عند دراستنا لشخصيات الأنبياء.

وباعتبار أن التوراة التي بين أيدينا كتبت في عصور مختلفة وقديمة سبقت بعثة المسيح عليه السلام فإن ما يزيد في كشف الأمور التاريخية والعقيدية أساطير شعوب المنطقة وعقائدها ومدى تأثر كتاب التوراة بها.

وحسب معطيات التوراة فإن تاريخ العبرانيين أو التوراتيين من حيث وجودهم يبدأ منذ النبي موسى عليه السلام. فالأمور في ذلك واضحة لا يكتنفها غموض. ونستطيع أن نقارن هذا التاريخ بتسلسل قصة موسى (عليه السلام) كما وردت في القرآن الكريم.

إننا نعترف أن القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً أو هو للتاريخ. غير أنّ الخطوط العامة فيه تردنا إلى معطيات تاريخية نستطيع أن نعتمد عليها كلياً في معرفة مفاتيح الأحداث ونتائجها. وإن كانت على مستوى الإنسان أو على مستوى الأحداث الكبيرة والصغيرة التي حدثت لبعض البشر أفراداً وجماعات.

لقد اعتمد بعض الباحثين الغربيين مقولة إن تاريخ العبرانيين يبدأ منذ النبي إبراهيم عليه السلام باعتباره الجد الأول لهم وللعرب. ويؤكدون ذلك من خلال دراسة السلسلة البشرية التي بدأت منذ إبراهيم عليه السلام حتى تصل إلى كافة الأنبياء لدى بني إسرائيل وبعض الأمم الأخرى كالعرب.

ويظل تاريخ إبراهيم عليه السلام غامضاً في كثير من خطوطه باعتبار أن

تدوين التوراة جاء متأخراً جداً عن زمن إبراهيم. بيد أننا نستطيع أن نلمح بعض الخطوط الأخرى التاريخية والجغرافية والعقيدية التي أحيطت بإبراهيم كرجل عادي ثم كنبي مرسل.

ولعل ظهور دعوته إلى التوحيد في عصر وثني يعطينا مؤشرات كثيرة ترشدنا إلى منهجه الديني الذي يختلف عما جاءت به التوراة. ومن هنا فإن المقارنة بين معطيات التوراة التاريخية ومعطيات المفاتيح القرآنية التاريخية تدلنا بشكل أو بآخر على المنطق التاريخي الصحيح والمسار التاريخي البعيد عن التخمينات والظنون.

وعندما نقول معطيات القرآن التي هي مفاتيح كبرى للتاريخ نؤكد مقولة المنطق والواقع بأن القرآن ليس كتاباً تاريخياً إنما هو كتاب الله ودستوره لبني الإسلام وللبشرية جمعاء. فيه إشارات ورموز وتلميحات وخطوط عامة ترشد الباحث إلى دراسة التاريخ بشكل مطمئن ومنطقي متوافق مع معطيات العلم والمنهج العلمي للدراسات. وسنرى ذلك في صفحات قادمة.

قد يخطر سؤال لأي منا ونحن نقدم منذ البداية افتراضات من المفترض أن تكون نتائج وليست مسلمات وبدهيات. هذا السؤال يقول إذا افترضتم أن التوراة قد دونت على مراحل استغرقت مئات السنين فكيف نقارنها بالقرآن الكريم وما بين الاثنين اختلاف جوهري في الأساس؟.

وبمعنى آخر إذا افترضتم أن التوراة التي بين أيدينا موضوعة وليست هي التي أنزلت على النبي موسى عليه السلام فكيف نقارنها بما أنزل على الرسول محمد ﷺ ومن قرآن حفظ في زمنه وتكفّل الله بحفظه. ثم ما المبرر لمقارنة ذلك بذاك؟.

للسائل أن يفترض هذا السؤال.

ولكن للحقيقة والموضوعية نجد أن في التوراة كثيراً مما في القرآن في خطوطه

العامة والقرآن الكريم يتحدث وفي أكثر من موضع أن التوراة حرفت. ولم تشر آية واحدة إلى أن التوراة كلها قد حُرِّفت.

فقد نجد تشابهاً في الأسماء وفي كثير من القضايا المرتبطة بالألوهية وأصل الخلق وكذلك قد نجد تشابهاً في الأسماء والأحداث التي جرت مع الأنبياء. ومثال ذلك ما نجده من تشابه في قصة يوسف أو بعض الأحداث التي جرت في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، ولهذا السبب نقول: إن التوراة التي بين أيدينا تحوي قدراً معيناً مما أنزل على موسى عليه السلام، لكن المسألة تعود إلى ما زيد على ما أنزل أو نقص. وهذه الزيادة قد تخالف المنظور الديني والعقلي وقد تخالف أبسط قواعد العرف البشري. ولهذا تأتي المقارنة بين القرآن الكريم والتوراة لتكشف تلك الزيادات الخطيرة وذلك النقصان الذي يقلب أحياناً الأمور رأساً على عقب.

إن التشابه في كثير من القضايا والقصص والشخصيات في القرآن الكريم والتوراة تؤكد أن مصدر القرآن ومصدر التوراة الأصلية التي أنزلت على موسى هو مصدر واحد. مصدر سماوي إلهي. وهذا يقودنا إلى النصوص القرآنية التي تصرح بأن الرسالات السماوية سلسلة في حلقات. كل رسالة تأتي لتستكمل ما نقص في الرسالة السابقة، وهذا يعود إلى حكمة الله في مسايرة عقل الإنسان وتفكيره الديني وتطوره. وقد جاء القرآن الكريم ليختم تلك الرسالات، ولتكتمل الدائرة اكتمالاً واضحاً لتكون لكافة الناس منهجاً ودستوراً حياتياً وأخروياً.

ومع المقارنة نرى أن القرآن الكريم يصحح ما وقع فيه التوراتيون من تزييف وتحريف ونرى أن آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن التوراة وعن أنبياء بني إسرائيل جاءت في أقوى صورة من الدعم ومقارعة الحجة بالحجة الدامغة. ثم جاءت لتتوافق كل التوافق مع معطيات الدراسات التاريخية والعلمية المنصفة والموضوعية.

وعندما ندخل المقارنة بعمق ونتفحص شخصيات الأنبياء وندرسها جيداً نرى أن القرآن الكريم أنصفهم بما يستحقون. وهذا ما يجعل أحد أهداف هذه

الدراسة الدفاع عن هؤلاء الأنبياء والرسل، ودفع الشبهات عنهم، والتي نرى أن التوراة نفسها تدسها عليهم. ولذلك نرى أننا كمسلمين أحق الناس بالقرب من هؤلاء الأنبياء. فهم أولى بنا ونحن أولى بهم من اليهود أو من أي كان.

لقد وقع بعض الباحثين العلمانيين من عرب وغير عرب في مطب خطير حين قالوا عن موسى عليه السلام إنه قائد عسكري مجرم غازٍ إلى آخر ما هنالك من أوصاف لا تليق بنبي، وهذا الذي وقعوا فيه لا يستند إلا لمقولات التوراة التي صورت الأنبياء بصور لا تليق بهم.

وأعتقد أن هذا المطب الذي وقعوا فيه يصبح حجة لدى اليهود أنفسهم حتى يقولوا إن الآخرين ينكرون الأنبياء الذين اعترف القرآن بهم وبرسالاتهم.

ولهذا لابد من الانتباه لمرامي اليهود وأهدافهم، ولا سيما حينما يثيرون لدى الدارسين الشهية في البحث عن المثالب التي ألصقوها بالأنبياء والرسل.

ومقارنة التوراة بالقرآن توضح لنا كيف أخفى كتبة التوراة كثيراً من القضايا وكثيراً من صفات الأنبياء، والعديد من الشخصيات، وكيف أن القرآن الكريم أتى عليها إن كان تصريحاً أو تلميحاً. مع العلم أن هذه القضايا خاصة بالعقيدة اليهودية وأن هذه الشخصيات عايشت أنبياءهم وتقابلت معهم. وسنبين في حينه الأهداف التي يرمون إليها من وراء ذلك التنكر والاخفاء. لقد كان لقصة النبي موسى عليه السلام ولقائه بالخضر أو الرجل الصالح في القرآن الكريم شأن مهم في سورة الكهف. وقد أنكرت التوراة هذه القصة وهذا اللقاء وأنكرت أيضاً الرجل الصالح ووجوده.

ولفقت على إسحق ويعقوب وشوهت شخصية هاجر أم النبي إسماعيل عليه السلام كما أنكرت نهائياً توجّهَ النبي إبراهيم عليه السلام إلى مكة وبناءه الكعبة. كل ذلك لتضيق المجال التاريخي وتحصره فيما يخص العبرانيين واليهود. وتنكر على الشعب العربي والأمة الإسلامية أية صلة بهؤلاء الأنبياء والرسل ومن ثم لتجردهم تماماً من أية خاصية دينية لهم.

وفي المقارنة أيضاً سنرى مدى التشويه التوراتي لحقائق التاريخ وحقائق العقائد الدينية، وسنرى أن آيات القرآن الكريم تدحض ادعاءاتهم وتكشف تزييفهم للحقائق. وتدافع عن الأنبياء وتنفي عنهم الشبهات التي دسها أصحاب التوراة عليهم.

وإذا كان الغرب يدعي انتسابه للمسيحية ولاسيما البروتستانتي منه ويدعي أن التوراة أو العهد القديم هو الكتاب المقدس المعوَّل عليه في تفسير الماضي والمستقبل فإن المقارنة بين التوراة والقرآن الكريم تزيل الغشاوة عن أعينهم، وتبين أن هذا الكتاب الذي اعتمدوه أساساً دينياً لرؤيتهم العقيدية ما هو إلا كتاب غير مقدس يعج بالأسطورة والوثنية والترهات والسحر والشعوذات بل هو يعج بالانتهاكات الأخلاقية السافلة.

أما إذا كان بعض العلمانيين يرون أن القرآن الكريم نسخة عن التوراة أو أن القرآن استقى كثيراً من الأفكار من المانوية الفارسية كما يدّعون فإن المقارنة توضح بالدليل القاطع أن القرآن الكريم كتاب سماوي معجز، فيه ما لم تأت به التوراة ولا غيرها من الكتب. واستشرف المستقبل لبني الإنسان وللكون حتى نهاية الحياة على وجه الأرض.

ولعل من أكثر الأمور التي شغلت التفكير الديني وخاصة اليهودي والغربي المتنصِّر ما جاءت به التوراة عن وعد إلهي لبني إسرائيل باحتلال وامتلاك أرض فلسطين وطرد سكانها منها وهذا الوعد المزعوم أصبح لدى الكثيرين من الباحثين والمهتمّين بالدراسات الشرقية سنداً يعودون إليه لتفسير الصراع بين قوى العالمين الغربي والإسلامي. حتى إن بعضهم يجعل التوراة المقياس الأول في دراسة آثار فلسطين وتاريخها ولاسيما القدس.

وقد تأثر بهذه المقولة كثير من العرب والمسلمين. وبالمقارنة يتبين كذب التوراتيين حول هذا الوعد. فهناك من الآيات القرآنية ما تستلزم التوقف طويلاً لفهم دلالاتها اللغوية المتعلقة بأرض فلسطين التي خصها الله بالمباركة أكثر من مرة

ووضح فيها أن أرضها سيرثها العباد المخلصون من أمة الإسلام فهي أرضهم ووعد لهم وحق.

لقد تحدثت التوراة عن تاريخ العبرانيين بما فيه من تناقضات كبرى في المجرى التاريخي، وبما فيه من تناقض في المفاهيم والقيم. فنزل القرآن الكريم على النبي ﷺ ليبين ما التبس على الناس من حكايات التوراة المتعلقة بالله وبالأنبياء والتاريخ. لقد كانت التوراة التي بين أيدي اليهود سبباً للتماهي النفسي عندهم، ويباباً للكبر والاستعلاء على الأمم ولما لم يكن بين العرب من يعرف خفايا التحريف اليهودي للتوراة فقد سقطت عقولهم في متاهات الادعاءات اليهودية والتأليف الذي تطاول على كل مفاهيم الدين والعقائد.

وما إن أنزل القرآن الكريم على قلب محمد ﷺ حتى أخذت الحقائق تظهر تباعاً فجن جنون اليهود لأنهم أدركوا أن هذا الكتاب هو من عند الله وليس من صنع البشر. وأنه فضح أكاذيبهم وتاريخهم وصحّح ما ران على العقول والنفوس من مغالطاتهم، حاربوا النبي محمد ﷺ وحاولوا قتله لأنهم أدركوا أن رسالته سماوية وأن ما أخفوه من تعاليم النبي موسى عليه السلام لن يبقى مخفياً، وأن ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام لا يتعارضان ولا يتناقضان.

ولما كانت مصلحة أحبارهم وزعمائهم تقتضي الحفاظ على أسرارهم لئلا تتهدد مصالحهم حاربوا الإسلام بشتى السبل.

لقد جادلهم القرآن الكريم وجادلهم النبي محمد ﷺ وبين لهم ما أخفوه فارتدوا خائبين موقنين أن النبي الذي يختم الأنبياء لن يكون منهم. وسقطت كل أفكارهم وحججهم أمام القرآن الكريم الذي تعهد الله بحفظه من الدس والتحريف.

obeikandl.com

تمهيد

من أين نبدأ وأين ننتهي؟ وموضوعنا شائك السبل معقد الطرق، هل نبدأ بالسؤال عن التوراة؟ كيف أنزلت أم كيف دونت؟ أين يقع التحريف وأين تقع الحقيقة؟ ما هي أوجه الخلاف بين التوراة وبين القرآن الكريم؟

أم نأخذ بما هو موجود في التوراة على شكله الذي وصلنا ونقارن بينه وبين القرآن؟ حقيقةً الأمر محير إلى حد بعيد. فالطرح السابق على الآخر أياً كان منهما تحفه المخاطر والتساؤلات ولابد من تجاوز المخاطر والإجابة عن التساؤلات.

ماذا نقدم وماذا نؤخر؟ هل نبدأ بقصة الخلق وهي التي عجزت أمامها العقول وحارت بشأنها الألباب؟ هل نتجاوز هذه المسألة ورموزَها موجودة في التوراة كما هي موجودة في القرآن؟ أم نبدأ بالحديث عن آدم باعتباره أول مخلوق وأسهبت التوراة في الحديث عنه كما تحدث عنه القرآن وأسهب؟

ولنعد أدراجنا إلى الوراء ونبحث عن الأسباب الدافعة للخوض في بحث كهذا ثم نبحث عن الغاية من ذلك.

يقول بعض الغربيين لاسيما الوجوديون: إن القرآن نسخة مهذبة عن التوراة.

ويقول آخرون: القرآن أملي على محمد ﷺ ولم ينزَّل من السماء.

ويقول آخرون: كتب القرآن ليلخِّص تجارب الشعوب الدينية ومعتقداتها.

ولا يزال اليهود لا يعترفون برسالة السماء لمحمد ﷺ. وينكرون على أمة القرآن الكريم إسلامها وعقيدتها.

فلنجادل بالتي أحسن مَنْ أحب الجدال. والإقناع والقناعة والاقتناع، حوار

مع العقل، والقرآن يحاور العقل. ليس فيه قمع ولا إكراه ولا إجبار على اعتناق المبادئ ولا قسر ما يوافق العقل والمنطق فلتأخذ به البشرية وما يخالف العقل والمنطق فليرفضهُ العاقلون ويسخر منه ذوو الألباب، وليعترف الإنسان أي إنسان بأن التجرد عن الهوى والتعصب والاقتراب من الموضوعية هما السبيل لإحقاق الحق ودحض الباطل.

هذه هي التوراة بين أيدينا نقرأها سطراً سطراً وإصحاحاً إصحاحاً وسفراً سفراً. وهذا هو القرآن الكريم بين أيدينا فلنقرأه آية آية وسورة سورة. ولنضع موازين العقل لمن أحب أن يزن بميزان العقل البشري الواعي الناضج.

فالتوراة مجموعة أسفار تصل تسعة وثلاثين سفراً. منها أسفار خمسة أولى تقول بعض الفئات اليهودية: إنها هي التوراة وما عداها لا نعترف عليه. إنها حسب عقيدة اليهود السامريين أسفار موسى التي أنزلت من السماء وما عداها كتابات كتبها أحبار وحاخامات على مدى تجاوز السبع مئة سنة.

والتوراة مجموعة كتابات لاهوتية وتاريخية دونت لشريعة أتباعها وتاريخهم، والكلمة بحد ذاتها تعني الشريعة أو التعاليم الدينية. وأسفارها كما قلنا غير متفق عليها، فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفاراً لا يقبلها أحبار آخرون، والمسيحيون المؤمنون بالتوراة يزيد الكاثوليك منهم سبعة أسفار مما يعتقد به البروتستانت وقد درج الكاثوليك على تقسيم التوراة تقسيماً آخر فهم يقسمونها إلى ستة وأربعين سفراً تندرج تحت خمسة أقسام هي:

أ ـ أسفار موسى الخمسة التي تتضمن شريعته.

ب ـ أسفار تاريخية وعددها 16 وهي: يشوع ـ القضاة ـ راعوث ـ الملوك الأول والثاني والثالث والرابع ـ أخبار الأيام الأول ـ أخبار الأيام الثاني ـ عزرا نحميا ـ طوبيا ـ أستير ـ يهوديت ـ المكابيون الأول والثاني.

جـ ـ أسفار شعرية وعددها ستة وهي: أيوب ـ المزامير ـ أسفار سليمان

الثلاثة (الأمثال) ـ الجامعة ـ نشيد الإنشاد ـ مراثي إرميا .

د ـ أسفار نبوية وعددها 17 وهي : أشعيا ـ أرميا ـ باروخ ـ حزقيال ـ دانيال ـ هوشع ـ يوئيل ـ عاموس ـ عوبيديا ـ يونان ـ ميخا ـ ناحوم ـ حبقوق ـ صفنيا ـ حجّي ـ زكريا ـ ملاخي .

هـ ـ أسفار تعليمية وعددها إثنان هما سفر الحكمة ويشوع بن سيراخ .

والعهد القديم على العموم سجل فيه شعر ونثر وحكم وأمثال وقصص وأساطير وفلسفة وتشريع وغزل ورثاء مع بلاغة أسلوب وفصاحة عبارات في كثير من الحالات[1] .

والقرآن الكريم كتاب الله الذي أنزله على قلب محمد ﷺ عن طريق الوحي وفيه 114 سورة . وقد اختلف المسلمون في تعريفه ولاسيما ما يتعلق بالكلام الذي فيه والمأثور عن أئمة الحديث والسنة قولهم إنه تعالى لم يزل متكلماً إذ شاء ومتى شاء وكيف شاء . وهو يتكلم به بصوت يسمع وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن للصوت المعين قديماً[2] .

وقد ظهرت تسعة تعريفات للقرآن الكريم وكل تعريف نابع من موقف أصحابه كالمعتزلة الذين قالوا إن القرآن مخلوق ، وكالصابئة والفلاسفة الذين قالوا إن كلام الله فيض يفيض على النفوس من معانٍ .

ومن المعاصرين من قال إن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه وهو ليس بمخلوق بل تنزيل من حكيم وهذا معتقد أهل السنة والجماعة قديماً وحديثاً[3] .

والقرآن الكريم تنزيل من الله معجز ، الإعجاز فيه يتحدى العرب بلغتهم ومعارفهم وتفكيرهم وهو المعجزة الأبدية إلى يوم القيامة تعهد الله بحفظه من

---

(1) د. أحمد شلبي . مقارنة الأديان . اليهودية ص232 .

(2) د. كامل موسى ، د. علي دحروج . كيف نفهم القرآن ص19 .

(3) المرجع السابق صفحة 20 .

التحريف والتشويه والاندثار ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وتحدّى ربنا الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ولكنهم يعجزون أمام هذا التحدي لأن القرآن كلام الله عز وجل وليس من صنع بشر. وما كان من الله سبحانه فهو معجز للعقول مهما بلغ ذكاؤها ومعجز للألباب مهما بلغت حيلها وأساليب إبداعها.

وقد دوِّن القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ. فكلما نزلت آية كان يشير ﷺ على أصحابه أن يضعوها في المكان كذا والمكان كذا من السورة. وما إن رحل إلى الرفيق الأعلى حتى كان القرآن الكريم قد دون متكاملاً إضافة لحفظه من قبل المسلمين وخاصة صحابة رسول الله ﷺ.

إنه أمر الله وإرادته أن يحفظ القرآن في الصدور وفي السطور، لا يزاد عليه ولا ينقص منه ليظل دستور المسلمين والبشرية لا ينقضي بوفاة رسول الله ﷺ ولا يتغيّر بتغير الأجيال.

واعتمد التوراتيون في شرح نصوص التوراة على ما أورده أحبارهم من تفصيلات في المشنا والجمارا وفيهما أحاديث مطولة عن طبيعة الشريعة التوراتية وما يرتبط بها من توصيات عقيدية وحياتية تخص العبادات والمعاملات اليهودية.

وبسبب من التغيرات التاريخية والاجتماعية التي طرأت على اليهود ولاسيما بعد السبي وما تبعه من تشريد أخذ علماء اليهود وأحبارهم بكتابة التلمود الذي يوضح رأي الكهنوت اليهودي في العلاقة بين اليهودي وغيره من أبناء الأمم والشعوب. ولا يستطيع الباحث أن يصل إلى حقيقة العقيدة اليهودية دون الاطلاع على تعاليم التلمود.

وقد كتب هذا التلمود في زمن السبي البابلي للعبرانيين، ويبدو أن الأهداف السياسية والعرقية لعبت الدور الأول في تدوينه. وكان اليهود آنذاك أشد حاجة لجمع النصوص اللاهوتية الداعية للحفاظ على تعاليمهم وذلك خوفاً من

الاندماج والاندثار. لاسيما أنهم تعرضوا لأكثر من سبي وأكثر من تشريد.

وفي المحصلة فإن ما ورد في التلمود من تشريعات وتصورات للعقيدة اليهودية لا ينفصل عما جاء في التوراة وهما مصدران أساسيان من مصادر هذه العقيدة.

ولاشك أن في القرآن الكريم ما يفسر بعضه بعضاً، غير أن السنة النبوية الشريفة وما جاء على لسان رسول الله ﷺ يعتبر المصدر الثاني من مصادر العقيدة الإسلامية بعد القرآن. وكثيرة هي الأمور التي لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى أحاديث رسول الله ﷺ ولا يجوز لمسلم أن يتجرأ على تفسير بعض القضايا باجتهاداته الشخصية دون الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

إن القرآن الكريم معجز في ألفاظه ومعجز في معانيه، وفي الوقت نفسه معجز لعقل الإنسان مهما بلغ من التبصر. فكان لابد من العودة إلى أحاديث رسول الله ﷺ حتى يتضح ما أشكل على العقول ويفهم ما قد التبس على أبناء الأمة الإسلامية.

إن قضايا كثيرة منها ما يخص الأنبياء ومنها ما يخص الحوادث جاءت في القرآن الكريم بشكل موجز جداً وبعضها الآخر أشار لها القرآن إشارة أو رمز لها رمزاً. ولو بقيت دون إيضاح من رسول الله ﷺ لما عرف المسلمون إلا النزر عنها أو أنهم سيقفون عاجزين أمام تفسيرها أو فهمها أو وعي ما ترمي إليه.

وقد أدخل التوراتيون كثيراً من الدس على الدين الإسلامي لاسيما فيما يتعلق بأمور الخلق وتاريخ البشرية. وخلطوا بين الأساطير والحقائق. وقد تنبه المسلمون لهذا الدس وحذروا منه. لكن كثيراً منه اختلط على بعض الرواة والمفسرين والمؤرخين المسلمين فأتوا به في سياق رواياتهم مما أوحى بالتالي للأجيال المتعاقبة أن هذه الأخبار أو هذه الأساطير جاءت في جوهر العقيدة. وهذا ما أثر سلباً على طريقة فهم الإسلام لاسيما لدى الدارسين والباحثين الغربيين واليهود.

ولهذا كانت العودة إلى أحاديث رسول الله ﷺ والتحقق مما ورد على لسانه عن طريق التبصر بعلم الحديث واجبة حتى يظهر الحق من الباطل والحقيقة من الخيال.